موقف أهل سنجقية بيت المقدس من نهاية الدولة العثمانيّة وبداية الاحتلال البريطاني

من خلال الوثائق السريّة البريطانيّة (1917 ـ 1918)

محسن محمد صالح*

مقدمة:

احتلت القوات البريطانية المناطق التي تتبع سنجقية بيت المقدس ـ حسب التقسيم الإداري العثماني ـ إثر الحملة العسكرية التي قادها الجنرال اللنبي Allenby في الفترة من أكتوبر ـ ديسمبر 1917، وانتهت أهم مراحلها باحتلال القدس في 9 ديسمبر 1917.[1]

وتغطي الدراسة التي نحن بصددها السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، أو الفترة بين احتلال سنجقية بيت المقدس وبين بدء الحملة الثانية الكبرى للقوات البريطانية لاحتلال باقي شمال فلسطين وسوريا والأردن ولبنان، والتي بدأت في منتصف سبتمبر 1918، وانتهت في آخر أكتوبر 1918.[2]

تُرى، ماذا كانت مشاعر الناس وهم يرون نهاية الدولة العثمانية التي ألفوها خلال القرون الأربعة الماضية، وكيف استقبلوا بداية الاحتلال البريطاني؟ لقد أشارت بعض الكتابات إلى مواقف الناس ومشاعرهم في تلك الفترة وإن لم تفرد لها مباحث خاصة،

---

*أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

[1] British Government, *A Brief Record of the Advance of the Egyptian Expeditionary Force*, under the Command of General Sir Edmund H. H. Allenby, July 1917 to October 1918, 2nd edition (London: H.M.S.O., 1919), pp. 2-10 .

[2] See: Ibid, pp. 28-34.

فتحدث عنها كامل خلة من خلال الرجوع إلى الجرائد والمجلات العربية الصادرة في تلك الفترة،[3] ونوهت إليها دورين إنغرامز D. Ingrams من خلال التركيز على وثائق الخارجية البريطانية[4]. وسنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على الموضوع من خلال دراسة وثائق المخابرات العسكرية البريطانية المحفوظة في ملفات وزارة الحرب البريطانية War Office (W.O.) والموجودة في دار الوثائق البريطانية بلندن Public Record Office (P.R.O.). وتنبع أهمية هذه الوثائق من أن مناطق سنجقية بيت المقدس كانت - في تلك الفترة - تحت الحكم العسكري البريطاني، ويتولى إدارتها حكام عسكريون. وتزداد أهمية هذه الوثائق إذا علمنا أنها كانت تكتب على شكل تقارير يومية يكتبها ضباط المخابرات المتوزعين على مختلف مناطق السنجقية، وبالتالي أمكن لها أن تعايش الأحداث وأن توفر تفصيلات تفتقر إليها المصادر الأخرى. وعلى الرغم من أن هذه التقارير تتحدث عن مواضيع شتى، إلا أننا نستطيع أن نجد في ثناياها إشارات وأخباراً ومواقف متنوعة حول الموضوع الذي نحن بصدد دراسته.

على أنه يجب التنبه إلى أن هذه التقارير لا تعكس دائماً وبدقة مشاعر الناس ومواقفهم، وإنما تعكس في أحيان عديدة الرؤية البريطانية للأمور، أو الصورة التي أرادت المخابرات أن تظهرها، أو الشعور الذي ذكره الناس للبريطانيين أو عملائهم، وهو شعور يحتمل المجاملة أو المبالغة خصوصاً في ظروف الحرب وعدم الاستقرار. لكنها - على أي حال - تتضمن الكثير من الصحة وتضيء إحدى زوايا الموضوع، لتتكامل من خلال الدراسة النقدية المقارنة مع الزوايا التي سبق وأن أضاءتها المصادر الأخرى.

وفي هذا المقال سنقسم دراستنا إلى جزأين:

الأول: مواقف ومشاعر أهل سنجقية بيت المقدس، حيث سنقدم دراسة وصفية مسحية لمواقف المناطق المختلفة.

الثاني: العوامل التي أثرت في مواقف الناس ومشاعرهم، حيث سنحاول استنباط هذه العوامل من خلال الأحداث والمواقف التي عكستها هذه التقارير. وهي بالطبع

---

[3] كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922 ــ 1939** (طرابلس/ ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط2، 1982)، ص 105 - 106، وص 177 - 178، وص 194 - 203 .

[4] Doreen Ingrams, *Palestine Papers 1917-1922: Seeds of Conflict* (London: John Murray, 1972).

عوامل لم تشر إليها التقارير بشكل مرتب أو منفصل، وإنما هو اجتهاد الباحث من خلال مطالعة النصوص واستقرائها ومقارنتها.

أولاً: مواقف ومشاعر أهل سنجقية بيت المقدس

أول ما تجدر الإشارة إليه هو أننا ندرس فترة تَحَوُّل، تعكس أوضاعاً قلقة غير مستقرة، وتجاذبت الناس ومشاعرهم فيها ظروف متقلبة. فالحرب لا زالت قائمة ولم تحسم نتيجتها بعد. وظلُّ الدولة العثمانية لا يزال موجوداً في معظم بلاد الشام، والقوات البريطانية لم تكن قد كسبت عملياً سوى جنوب فلسطين (سنجقية بيت المقدس). وفي الوقت الذي كانت أخبار التحالف البريطاني مع الثورة العربية تثير الآمال الكبار بمستقبل مشرق، كانت "شائعات" الاتفاقات البريطانية ـ الفرنسية، والعهود البريطانية للصهيونية تثير المخاوف والرعب بغدٍ مظلم.

وعلينا ألا نستغرب إذا وجدنا نوعاً من التضارب والتناقض في هذه التقارير، لأن وضعها في سياقها التاريخي يعكس تقلّب مشاعر الناس تجاه أحداث متسارعة وعوامل شدّ وجذب مختلفة.

ففي منطقة **القدس** أشار تقرير الحاكم العسكري إلى احتلال القوات البريطانية للقدس كان يحظى بشعبية استثنائية، ولكنه يعترف بأن شعبيتهم تضاءلت شيئاً ما نتيجة أسباب اقتصادية، ومخاوف الناس من سياسة بريطانيا تجاه اليهود[5] ولاحظ ضابط مخابرات القدس أن مسلمي القدس أظهروا سلوكاً ودياً أفضل عندما تم تعيين أناس من بني دينهم في الوظائف الرسمية.[6] وتركت زيارة اللنبي ـ القائد العام للقوات البريطانية في المنطقة ـ لمفتي القدس كامل الحسيني أثراً ممتازاً جداً ـ حسب رأي حاكم القدس ـ بل وخففت من مخاوف المسلمين تجاه اليهود.[7] غير أن قدوم البعثة الصهيونية في شهر إبريل 1918 قد جدد مخاوف الناس. ونقل عن ضابط مخابرات القدس في 17 يونيو 1918 أن الشعور العام في القرى ليس ودياً جداً مشيراً إلى أن المسألة الصهيونية

---

[5]Intelligence Summary (War Diary), By General Headquarters (G.H.Q.), Egyptian Expeditionary Force (E.E.F), Intelligence, 29 Jan. 1918, p. 20, W.O. 157/723.

[6]Intelligence Summary, 6 Mar. 1918, p. 17, W.O. 157/725.

[7]Intelligence Summary, 19 Mar. 1918, p. 43, W.O. 157/725.

هي السبب الرئيس لعدم الثقة وسط السكان المسلمين والمسيحيين.[8] وعندما حسمت المعارك في شمال فلسطين والأردن لصالح البريطانيين شعر الناس باقتراب إنشاء الدولة العربية بقيادة الشريف حسين فقامت وفود كل الطوائف في القدس في 28 سبتمبر ـ بما فيها رئيس البلدية والمفتي الأكبر وقادة الطوائف الدينية ـ بتقديم "أخلص التهاني للنجاحات الأخيرة للقوات البريطانية في فلسطين، وعبرت عن سعادتها بوجودها تحت حكم بريطانيا العظمى الرحيم"!! على حد تعبير التقرير، وطلبوا نقل مشاعرهم لملك بريطانيا.[9]

وفي **يافا** ـ ثاني أكبر مدن فلسطين بعد القدس ـ نجد أن المشاعر تجاه البريطانيين كانت أكثر تحفظاً، ربما لملاصقتها لتل أبيب التي أصبحت منطقة تركز ونمو يهودي، وبالتالي شعور سكانها بشكل أكبر بالخطر الصهيوني، ولقربها من خط المواجهة مع الأتراك. فتعترف التقارير أن مشاعر الناس قلقة جداً بسبب المعاملة التفضيلية لليهود،[10] وأن هناك حديثاً مضاداً للبريطانيين بشكل محدود في بعض القرى،[11] وأن مشاعر قوية مضادة للبريطانيين استمرت في الظهور وسط المتعلمين وأنصاف المتعلمين.[12] وفي شهر مايو 1918 اعترف التقرير بأن الشعور العام وسط المسلمين والمسيحيين لا يتحسن تجاه البريطانيين،[13] وأن قدراً كبيراً من عدم الرضا قد حدث بسبب إخلاء السكان من منطقة الحرب، وأن هناك حديثاً ضد بريطانيا يأتي بشكل مستمر من القرى، ولكنه يدعي أن غالبية الفلاحين ليسوا مع الأتراك ولا البريطانيين، ولكن "المخاتير" والرجال الأكثر تأثيراً هم بشكل عام يفضلون الحكم السابق.[14]

وفي منطقة **الخليل** يذكر تقرير في 2 يناير 1918 أن 60 ٪ يؤيدون التحالف Pro—Ally وأن 35 ٪ دون ميول سياسية.[15] ويبدو من التقرير اعتراف ضمني بأن التأييد

---

[8]Intelligence Summary, 17 Jun. 1918, p. 17, W.O. 157/728.

[9]Intelligence Summary, 28 Sep. 1918, p. 5, W.O. 157/731.

[10]Intelligence Summary, 24 Feb. 1918, p. 42, W.O. 157/724.

[11]Intelligence Summary, 27 Mar. 1918, p. 62, W.O. 157/725.

[12]Intelligence Summary, 3 Apr. 1918, p. 6, W.O. 157/726.

[13]Intelligence Summary, 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.

[14]Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 25, W.O. 157/727.

[15]Intelligence Summary, 2 Jan. 1918, p. 2, W.O. 157/723.

للتحالف، وليس بالضرورة لبريطانيا ذاتها وأهم عنصر في هذا التحالف بالنسبة للسكان هو الثورة العربية الكبرى. وبعد أربعة أشهر يدَّعي التقرير أن الشعور العام تجاه الأتراك يتسم بالعصبية والخوف من عودتهم، وأن أغلب الناس يؤيدون البريطانيين.[16] وفي إحدى اليوميات حاول ضابط المخابرات في الخليل تقديم تفسير مبني على رؤية اجتماعية طبقية لمشاعر الناس، فقال: إن الرأي العام أكثر ميلاً للبريطانيين وسط الطبقات الفقيرة منها لدى العائلات الغنية، والتي على الرغم من أنها لا تحب الحكم البريطاني، إلاّ أنها لا تزال تميل للصمت بسبب الخوف من عودة الاحتلال التركي.[17]

وفي منطقة **رام الله** لاحظ ضابط مخابراتها في 19 فبراير أن سكانها الذين ترتفع نسبة المسيحيين بينهم يتعاملون بشكل ودِّي مع البريطانيين، وأنهم راضون تماماً.[18] أما بلدة البيرة المجاورة لرام الله فقد لاحظ أن سكانها مسلمون، وأنهم بلا شك مؤيدون للأتراك.[19] وهو هنا يعيد الأسباب إلى خلفيات دينية.

وفي منطقة **بيت لحم** كان هناك اختلاف بين فئات الناس. ففي المدينة ذاتها تذكر اليوميات أن الأغلبية من النصارى، وأنها ودِّية مع البريطانيين، ويقول: إن الناس راضون، "ويباركون الاحتلال البريطاني"، وأن النصارى يتبنون سلوكاً حماسياً بشكل عام تجاه البريطانيين،[20] ولاحظت اليوميات أنه حتى في 14/5 فإن شعور المسلمين في بيت لحم لا زال معادياً للبريطانيين.[21]

أما القبائل العربية المقيمة بجوار بيت لحم فتتحدث التقارير عن قبيلة التعامرة بالكثير من التشكك والامتعاض. وأشارت أولى التقارير عنهم أنهم غير موثوقين كثيراً، وأن هناك على أي حال جهوداً تبذل للتأثير فيهم من خلال إشعارهم بفائدة

---

[16] Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 24, W.O. 157/727.

[17] Intelligence Summary, 8 Jul. 1918, p. 9, W.O. 157/729.

[18] Intelligence Summary, 19 Feb. 1918, p. 32, W.O. 157/724.

[19] Intelligence Summary, 27 Feb. 1918, p. 53, W.O. 157/724.

[20] Intelligence Summary, 5 Feb. 1918, p. 4, W.O. 157/724, and, 5 Mar. 1918, p. 13, W.O. 157/725.

[21] Intelligence Summary, 14 May 1918, p. 20, W.O. 157/727.

وجودهم تحت الحماية البريطانية.[22] لكن ضابط المخابرات ما يلبث أن يعبر عن غضبه فيدَّعي أن التعامرة مجرّدين من المبادئ الخلقية، وأنهم مستعدون للتعامل مع الأتراك ومع الإنجليز حسب الثمن المعروض عليهم.[23] ويضيف - في تقرير آخر - بعد أيام أن التعامرة مخادعون للبريطانيين، وليسوا موضع ثقة.[24] إن التعبيرات القاسية التي استخدمها ضابط المخابرات ضد التعامرة لا تعطي وصفاً صحيحاً، ولكنها تعبّر بشكل أدق عن حالة الانزعاج البريطاني منهم، وهي في هذه الحالة قد تكون "شهادة حسن سلوك" للتعامرة عند الأتراك.

وفي نظرة عامة للقبائل العربية في منطقة البحر الميت المجاورة لمدن القدس وبيت لحم والخليل تقول إحدى المذكرات: إن سلوكهم ودِّي، باستثناء قبيلة السواحرة. ويعلق كاتب المذكرة بأنه يظهر أن العرب سعداء بتقدم القوات البريطانية، لكنه يعترف بأنه "إذا انسحبنا فمن المرجح أن يكون سلوكهم ودِّياً مع الأتراك".[25] وهذا اعتراف معناه أن السلوك الودي تجاه البريطانيين اقتضته ظروف الاحتلال القائمة الطارئة، وليس موقفاً يعبّر بعمق عن حقيقة المشاعر الداخلية للسكان.

وفي **غزة** ذكرت اليوميات أن تصرف سكان غزة تجاه القوات استمر جيداً،[26] وأنه ودي تجاه البريطانيين ومعادٍ للأتراك،[27] وأن 90 ٪ من الرأي العام في منطقة غزة "سعيد بالاحتلال البريطاني".[28]

وفي **المجدل** أشارت اليوميات إلى حماس الناس للبريطانيين، فذكرت أن الأغلبية الكبرى من السكان تظهر بشكل صادق سعادتها بالاحتلال البريطاني،[29] وأن 90 ٪ من سكان المجدل يرحبون بالبريطانيين.[30] ونقل ضابط مخابرات المجدل عن أحد

---

[22] Intelligence Summary, 5 Feb. 1918, p. 4, W.O. 157/724.
[23] Intelligence Summary, 25 Feb. 1918, p. 44, W.O. 157/724.
[24] Intelligence Summary, 1 Mar. 1918, p. 1, W.O. 157/725.
[25] Memorandum, Dec. Diary 1917, p. 7, W.O. 157/722.
[26] Intelligence Summary, 25 Jan. 1918, p. 16, W.O. 157/723.
[27] Intelligence Summary, 19 Feb. 1918, p. 30, W.O. 157/724.
[28] Intelligence Summary, 15 Jan. 1918, p. 11, W.O. 157/723.
[29] Intelligence Summary, 11 Jan. 1918, p. 7, W.O. 157/723.
[30] Intelligence Summary, 24 Jan. 1918, p. 16, W.O. 157/723.

السكان قوله له إن كثرة الأمطار وأجواء المناخ الممتازة هذا العام دليل على موافقة العناية الإلهية على الاحتلال البريطاني![31] وبلغ من المجاملة للبريطانيين أن السكان نقلوا رغبتهم بألا يُعين في الإدارة أية موظفين من الإدارة التركية السابقة، ورفعوا عريضة بهذا الشأن حتى إنها تضمنت أن يتم إحضار القاضي الديني المعين من القاهرة!! وأشار إلى أن غياب التعصّب الديني والسلوك الودي تجاه بريطانيا وجد دليلاً من حقيقة أن تاجراً بارزاً في المدينة دعا الحاكم العسكري للمجدل لحضور الاحتفال الديني في المسجد.[32]

ويبدو أن ما ينطبق على المجدل لم يكن منطبقاً على القرى المجاورة لها، فقد اعترفت اليوميات بوقوع حوادث ذات طبيعة معادية، وأشارت بأصابع الاتهام إلى البدو في أحد الأحيان، وفي مواضع أخرى تحدثت بغضب عن قرية "يبنة" حيث وقعت قربها حادث إعاقة على الخط الحديدي وأشار إلى أن لهذه القرية سمعة سيئة وأن لها إساءات سابقة.[33] وليس من المستبعد - في رأينا - أن هذه الحوادث ربما عبرت عن حالة العداء تجاه البريطانيين، ولم تكن مجرّد حوادث سلب ونهب عادية. ونقل عن أن "مخاتير" قرية السوافير الشرقية يخبرون القرويين أن الأتراك سيعودون قريباً، وألا يلقوا اهتماماً للأمر بتسليم أسلحتهم.[34]

وفي منطقة **بئر السبع** حيث تكثر القبائل العربية البدوية يظهر أن السلوك العام كان يميل إلى تجنب الاحتكاك بالبريطانيين،[35] أي تبنوا نوعاً من السلوك الودي السلبي. وكان هناك شعور أن الاحتلال البريطاني هو احتلال مؤقت، وبالتالي كانوا يرغبون في أن يتركوهم وشأنهم.[36] وعندما بدأت القوات البريطانية في جمع الأسلحة ومصادرتها أثار ذلك امتعاض البدو وعداءهم،[37] نظراً لأهمية السلاح الحيوية في الحياة

---

[31] Intelligence Summary, 12 Feb. 1918, p. 17, W.O. 157/724.

[32] Intelligence Summary, 22 Feb. 1918, p. 38, W.O. 157/724.

[33] Intelligence Summary, 5 Apr. 1918, p. 11, W.O. 157/726.

[34] Ibid.

[35] Intelligence Summary, 13 Jan. 1918, p. 10, W.O. 157/723.

[36] Intelligence Summary, 26 Feb. 1918, p. 48, W.O. 157/724.

[37] Intelligence Summary, 18 Feb. 1918, p. 29, W.O. 157/724.

البدوية. ونقلوا للحكومة اعتراضهم على ذلك وأن الحكومة "تعاملهم كالنساء"[38].

وحاولت تقارير المخابرات تصنيف مشاعر القبائل تجاه البريطانيين، فذكرت أن "التياها" على صلة ودِّية بالإدارة البريطانية، وأن غالبيه "الترابين" ودِّيين، وأن الجبّارات راضون إلى حدٍّ معقول بالإدارة البريطانية، أما الحناجرة فليسوا ودِّيين كثيراً.[39] وقال: إن قبيلة العزازمة انعزلت جانباً "وتجاهل مشايخها دعوتنا لهم" وأن العملاء يخبرون عن وجود حديث عدائي بينهم ضد البريطانيين، ولكنهم ليسوا معادين بشكل مكشوف. وذكر أن عدد العزازمة يبلغ 3500 وأن أفرادها متشككون في الأوربيين لدرجة العداء، وأن شيخهم عم سالم بن سعيد معادٍ جداً للبريطانيين، وأنه سعى للتأثير على الشريف حسين ضد البريطانيين.[40] ووصف العزازمة بأنهم أكثر تشكيكا وأقل تودداوسط القبائل.[41] لكنه ما يلبث بعد عشرة أيام أن يذكر أن سلوك العزازمة أصبح ودياً.[42] ثم يعود بعد ذلك بشهر للاعتراف بأن العزازمة لا يحبون أية حكومة تركية أو بريطانية.[43]

وتحدثت التقارير في 20يناير 1918 عن معسكرات ضخمة من قبائل شتى تجمعت إلى الشرق من بئر السبع على طول وادي الملح وإلى الشمال منه، وذكر بأن هؤلاء الرجال مسلحون بكميات ضخمة من البنادق التركية والبريطانية، ويظهر أن هناك "قدراً كبيراً من الشعور المعادي للبريطانيين وسط هذه القبائل".[44] ويبدو أن السلطات البريطانية لم تستطع أن تفرض هيبتها على البدو حتى شهر فبراير 1918، إذ تعترف إحدى التقارير بأن ستة من البدو هاجموا اثنين من السباهي (مجندين هنود في الجيش البريطاني)، وأنهم صادروا بَغْلَيْهِمَا.[45]

---

[38] Intelligence Summary, 14 May 1918, p. 21, W.O. 157/726.

[39] Intelligence Summary, 9 Apr. 1918, p. 17, W.O. 157/726.

[40] Intelligence Summary, 26 Feb. 1918, p. 48 Ü 49, W.O. 157/724.

[41] Intelligence Summary, 1 Mar. 1918, p. 1, W.O. 157/725.

[42] Intelligence Summary, 11 Mar. 1918, p. 30, W.O. 157/725.

[43] Intelligence Summary, 9 Apr. 1918, p. 17, W.O. 157/726.

[44] Intelligence Summary, 20 Jan. 1918, p. 20, W.O. 157/723.

[45] Intelligence Summary, 2 Feb. 1918, p. 1, W.O. 157/724.

إن الاستعراض السابق للمناطق يشير إلى نوع من تداخل المشاعر، وإلى أشكال متباينة من السلوك تجاه العثمانيين والبريطانيين في أجواء وظروف غير مستقرة.

ثانياً: العوامل المؤثرة في مواقف الناس ومشاعرهم:

1 ـ الثورة العربية الكبرى:

لا شك أن الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين بن علي في يونيو 1916 كانت إحدى العوامل الحاسمة في تحديد موقف الناس من الحكم العثماني، وفي طريقة استقبالهم للاحتلال البريطاني. وإذا تتبعنا مواقف الناس أثناء الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918 نستطيع أن نلمس فرقاً كبيراً قبل قيام الثورة وبعد قيامها. فقد كان الجو العام يتجه نحو تأييد العثمانيين في حربهم ضد بريطانيا وحلفائها. وجرت حملات تعبئة كبيرة داخل فلسطين لدعم العثمانيين، واستقبل الجيش العثماني بحفاوة كبيرة، وتطوع الكثيرون في الحملة العثمانية ضد البريطانيين في مصر، وذهب وفد من علماء فلسطين إلى اسطمبول لتهنئة العثمانيين بانتصاراتهم في جناق قلعة 1915.[46]

غير أن إصرار حكومة "الاتحاد والترقي" على استمرار تجاهلها لمطالب العرب، وتنكرها لوعودها التي قطعتها، وتعيينها جمال باشا الذي نكّل بالعديد من قياداتهم ورموزهم، واستمرارها في سياسة علمنة الدولة، وتغييب الهوية الإسلامية للدولة، قد أفقد المسلمين من القوميات الأخرى أهم عناصر وأسباب الحب والولاء للدولة.[47]

---

46 انظر مثلاً في كتابات ومذكرات شخصيات عاصرت تلك الفترة: خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا** (دمشق: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1982)، ص 84 ـ 85، وعجاج نويهض، **رجال من فلسطين** (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981)، ص 36، وص 157، وص 246، وص 250، وأحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار، 1969)، ص 25، ومحمد عزة دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى** (صيدا/ بيروت: المكتبة العصرية، دون تاريخ)، ص 344.

47 تعرضت الكثير من الكتابات والدراسات لهذا الأمر، انظر مثلاً: **ثورة العرب ضد الأتراك: مقدماتها، أسبابها، نتائجها**، بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية، حققه وقدم له: عصام محمد شبارو (بيروت: دار مصباح الفكر، 1987)، ومحمد عزة دروزة، **مرجع سابق**، ص 336 ـ 339، وانظر

George Antonius, *The Arab Awaking*, 5th empression (Beirut: Lebanon Bookshop, 1969).

وبيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 ــ 1948** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 24 ـ 46.

لقد كان تحالف الشريف حسين مع البريطانيين ذا تأثير كبير في قطاعات واسعة من أبناء فلسطين الذين رأوا في البريطانيين حلفاء يقدمون الدعم في سبيل إنشاء الدولة العربية. وقد اعترفت التقارير البريطانية في تلك الفترة أنه تم تشجيع مثل هذه المشاعر. فيذكر تقرير لجنة بالين - مثلاً ــ أن الخيال العربي كان مشتعلاً برؤية إمبراطورية عربية تحت حكم شريف مكة، وأن عرب فلسطين - بما فيهم المسيحيون - كانوا يحلمون بذلك. ويعترف التقرير أن النتيجة كانت تحوّل المشاعر عن الأتراك إلى شعور ودّي تجاه "الاحتلال البريطاني"، ويضيف **بأن هذا الشعور قد تم تشجيعه بكل سبل الدعاية الممكنة لوزارة الحرب البريطانية**. وقال بأن الانطباع الأولي لدى العرب كان أن البريطانيين **يقومون بإنشاء دولة عربية تتضمن فلسطين**، وأن سياسة الحلفاء المعلنة المؤيدة لتقرير المصير للشعوب الصغيرة شجعت الفلسطينيين على "الظن" أنه سيسمح لهم بالاتحاد مع الدولة العربية الكبرى.[48] وقد ألقت الطائرات الحربية البريطانية نفسها منشورات على فلسطين باسم الشريف حسين، ومما ورد فيها "...هلموا للانضمام إلينا نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحرية العرب، حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد أسلافكم.."[49]

وعلى الرغم من انتشار "شائعات" في فلسطين في تلك الفترة تدور حول وعد بلفور لليهود وحول اتفاقيات **سايكس - بيكو** بين فرنسا وبريطانيا، إلاّ أن التأكيدات والوعود البريطانية التي استمرت في الصدور طيلة 1918 (والتي كان أبرزها تأكيدات هوجارث Hogarth في فبراير 1918، والتصريح البريطاني للسوريين السبعة في يونيو 1916، والتصريح الأنجلو ــ فرنسي في نوفمبر 1918) كانت تحمل وعوداً بالحرية والاستقلال وقيام حكومات وطنية حسب رغبات السكان.[50] وقد أسهم ذلك في

---

[48] Report of the Court of Inquiry Convened by Order of his Excellency the High Commissioner and Commander in Chief (Egypt), Dated 12 Apr. 1920, Submitted by the court in 1st Jul. 1920, Secret, p. 7, F.O. 371/5121.

لجنة بالين هي لجنة عسكرية عرفت باسم رئيسها اللواء بالين P.C. Palin، وقد شكلها الجنرال اللنبي للتحقيق في انتفاضة موسم النبي موسى التي اندلعت في 4 إبريل 1920.

[49] **ملف وثائق فلسطين**، إعداد الهيئة العامة للاستعلامات، وزارة الإرشاد القومي، مصر (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، 1969)، ج1، ص 167.

[50] انظر: بيان الحوت، **مرجع سابق**، ص 67 - 74، وعبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط9، 1990)، ص 73 - 84.

استمرار حالة التأييد والسلوك والودي تجاه البريطانيين، كما أسهم على الأقل في شلّ أي استراتيجية تحرك عربي فعّال مضاد للبريطانيين وتحويل الناس إلى حالة من الترقب بانتظار انتهاء الحرب وتقرير مصير فلسطين.

وتعكس تقارير المخابرات البريطانية جانباً من حالة التأييد للثورة العربية الكبرى، فتنقل عن عربي مسيحي كان يعمل ضابطاً طبياً في الجيش العثماني وقبض عليه في الأول من مايو 1918 أن المسلمين العرب متشوقون ليروا استعادة الخلافة العربية.[51] وتذكر في تقرير أعدته في 10 مايو 1918 أن العرب يميلون إلى ملك الحجاز باعتباره رأس دينهم، ويتوقعون أن يقوم بتشكيل حكومة عربية في سورية،[52] وينقل ضابط مخابرات المجدل عن الهاربين من الجندية أن الأتراك يصفون الانتصار البريطاني في فلسطين بأنه راجع في الحقيقة إلى مساعدة الشريف.[53]

وتقارير الاستخبارات البريطانية التي نقوم بالتركيز عليها في هذا المقال -تؤكد بالفعل وجود حالات هرب واسعة وسط الفلسطينيين من الجيش العثماني، كما تشير إلى انضمام أعداد لا بأس بها منهم إلى قوات الثورة العربية الكبرى، مما يؤكد قوة تأثير هذا العامل في أبناء فلسطين. فيشير تقرير المخابرات العسكرية البريطانية ليوم 2 يناير 1918 أن عدد الهاربين من الجندية في منطقة الخليل خمسة آلاف رجل،[54] وفي تقرير آخر أن عدد الهاربين من الجندية في منطقة المجدل 2882 هارباً منهم 791 مقاتلاً.[55]

وفي تقرير كتبه ضابط مخابرات يافا في الأول من مارس أن عدد الهاربين من الجندية المسجلين لديه هو 1947 رجلاً.[56] وبالطبع فهناك أعداد كبيرة أخرى في مناطق تتبع سنجقية بيت المقدس مثل القدس وغزة وبئر السبع وبيت لحم ورام الله. ولو أردنا إعطاء تقرير عن الهاربين من الجندية من أبناء سنجقية بيت المقدس - بناءً على الأمثلة المعروفة لدينا في بعض المناطق - لربما زاد العدد عن خمسة عشر ألف رجل.

---

[51] Intelligence Summary, 13 May 1918, p. 20, W.O. 157/726.

[52] Political and Economic Intelligence Summary, G.H.Q., E.E.F., 10 May 1918, p. 2, W.O. 157/727.

[53] Political, Economic and Financial Intelligence Bulletin, 5 Apr. 1918, p. 2, W.O. 157/726.

[54] Intelligence Summary, 2 Jan. 1918, p. 3, W.O. 157/723.

[55] Intelligence Summary, 12 Feb. 1918, p. 17, W.O. 157/724.

[56] Intelligence Summary, 1 Mar. 1918, p. 2, W.O. 157/725.

ومن ناحية أخرى فقد نشط دعاة الثورة العربية الكبرى في تجنيد أبناء سنجقية بيت المقدس للانضمام للثورة، وأنشأوا في يونيو 1918 مكتباً رسمياً للتطوع بتشجيع بريطاني.[57] وتشير تقارير المخابرات البريطانية بين آن وآخر إلى تطور أعداد المنضمين للثورة، فتذكر مثلاً أنه حتى 27 يوليو 1918 وصل عدد المجندين - في جيش الشريف ـ في القدس إلى "534" مجنداً،[58] وأنه تم تجنيد "160" متطوعاً حتى 4 أغسطس في يافا.[59] وحسبما يشير جورج أنطونيوس فإن عدد المتطوعين في الجيش الشريفي قد بلغ ألفين،[60] وهو رقم معقول نسبياً مقارنة بالأرقام التي أشارت إليها المخابرات البريطانية في مناطق مختلفة وفي أوقات متباينة.

ولنا أن نستنتج من ذلك أن الثورة العربية حققت نجاحاً لا يستهان به وسط الفلسطينيين المجندين في الجيش العثماني. ولذلك فمن باب أولى أن تكون قد حققت شعبية واسعة وسط الفلسطينيين أنفسهم الموجودين تحت الاحتلال البريطاني، والبعيدين عن أجواء الهيمنة والضبط والملاحقة العثمانية.

ومن جهة أخرى فإننا نلاحظ أن أعداداً كبيرة من الهاربين من الجندية فضلت عدم الانضمام الفعلي للجيش الشريفي، ورغبت في أن تترك وشأنها، وأن تعود لممارسة حياتها المعتادة في قراها ومدنها. ولعلنا نستطيع تفسير ذلك بطبيعة أن التجنيد للجيش العثماني الذي كان إجبارياً، بينما كان التجنيد لجيش الشريف اختيارياً، وبظروف المعاناة الاقتصادية لعائلاتهم نتيجة للحرب، وبإمكانات الاستيعاب، وكذلك بحالة عدم الاطمئنان إلى الوعود البريطانية التي كانت لا تزال موجودة في نفوس الكثيرين، وما أصبحوا يرونه بأعينهم من إعطاء مزايا لليهود. ولذلك تذكر هذه التقارير أن جهود التجنيد في جيش الشريف لم تكن ناجحة جداً وأنها واجهت عدم استجابة في بعض الأحيان، ونقلت عن عدد من المسلمين قولهم: "إنهم لا يعرفون لماذا يجب أن يقاتلوا حتى يعطوا فلسطين لليهود".[61]

---

[57] Intelligence Summary, Jun. 1918, p. , W.O. 157/728.

[58] Intelligence Summary, 24 Jul. 1918, p. 2, W.O. 157/729.

[59] Intelligence Summary, 7 Aug. 1918, p. 6, W.O. 157/730.

[60] G. Antonius, op. cit, p. 230.

[61] Intelligence Summary, 1 Jun. 1918, p. 1, W.O. 157/728.

ولذلك فربما نستطيع القول بأن الثورة العربية كانت عاملاً مهمّاً في إضعاف العثمانيين وتحييد أبناء سنجقية بيت المقدس، إلاّ أنها لم تكن عاملاً فعالاً في تجنيد أعدادٍ كبيرة منهم بسبب المخاوف التي كانت تجد صداها لديهم.

وفي المقابل تنقل هذه التقارير حالة انزعاج بين أبناء سنجقية بيت المقدس من الشكل الذي تتم به الأمور، فينقل تقرير في 13 مارس 1918 أن المسلمين مصابون - إلى حد ما - بخيبة أمل تجاه الطريقة التي تطورت إليها الحركة العربية حتى الآن "لقد توقعوا أن تصبح الحركة العربية حركة مستقلة لخدمة الإسلام على الرغم من دعم بريطانيا العظمى لها. ويظهر أنهم فوجئوا بأن الشريف لم يدخل القدس و لم يصلِّ في مسجد عمر [المسجد الأقصى]. لقد بدأوا يشعرون أن إنجلترا حرضّت الحركة العربية لمصلحتها الخاصة". ومع ذلك فإن التقرير يضيف أن "البعض يصرحون أنه إذا كانت الخلافة سوف تمنح للشريف فإن ذلك سوف يعوّض خسارة المكانة والهيبة التي لحقت بالإسلام".[62]

ويبدو أن مسلمي يافا كانوا أكثر وضوحاً في التعبير عن مخاوفهم إذ يذكر تقرير أن أغلبيتهم ينظرون إلى ملك الحجاز تقريباً باعتباره رئيساً صورياً، ويظنون أن بريطانيا العظمى هي التي تقوم بحملة الحجاز.[63]

ثانياً: العامل الديني:

لا يمكن تجاهل العامل الديني لدى السكان في تحديد مواقفهم من العثمانيين والبريطانيين خصوصاً وأن التدين كان لا يزال عميقاً في النفوس في تلك الفترة. وقد رأينا أن جانباً كبيراً من تأييد السكان للثورة الكبرى كان على أسس دينية. ويبدو لنا أن العامل الديني قد استخدم بشكل فعّال من الطرف المؤيد للعثمانيين ومن الطرف المؤيد للثورة العربية وحلفائها، وذلك في سبيل تأكيد الشرعية وتجميع الأنصار. ولعل ذلك التعارض أدى إلى أن يكون تأثير العامل الديني متعادلاً، و لم يكن أمراً حاسماً لكسب المؤيدين عند أي طرف من الأطراف. فبينما لجأ العثمانيون لحشد الأنصار على أساس دعم الخلافة الإسلاميّة وسلطان المسلمين، وحماية بلاد الإسلام من الكفار، لجأ أنصار الثورة العربية إلى الطعن في حقيقة الالتزام الديني لقادة "الاتحاد

---

[62] Intelligence Summary, 13 Mar. 1918, p. 33, W.O. 157/725.

[63] Intelligence Summary, 24 Apr. 1918, p. 40, W.O. 157/726.

والترقي" وإبراز انحرافاتهم، والتأكيد على أحقية العرب بإقامة الخلافة تحت قيادة زعيم حزب عربي من السلالة النبوية، وعلى جواز التحالف مع السلطات البريطانية - كما تحالف الأتراك مع الألمان - الذين أعطوا العهود والمواثيق بإقامة الحكم العربي.

ومن خلال دراسة الوثائق البريطانية ظهر واضحاً أن بريطانيا أدركت قيمة العامل الديني في حربها مع العثمانيين. وقد أشارت الوثائق إلى أن من أبرز أهداف تحالف بريطانيا مع الشريف حسين إلغاء التأثير الديني لنداء الجهاد الذي أصدره الخليفة العثماني، وعدم تحويل الحرب بين الدولة العثمانية ضد البريطانيين إلى حرب دينية تؤدي إلى إثارة المسلمين، ليس في الدولة العثمانية فقط، ولكن في البلاد التي يسيطر عليها الاستعمار البريطاني مثل مصر والسودان والهند وجنوب الجزيرة العربية. ثم إن قيام ثورة عربية تحت قيادة تتمتع باحترام المسلمين دينياً وتاريخياً سيؤدي إلى كسر الروح المعنوية التركية[64] ويعطي مسحة من "المصداقية" لبريطانيا التي ستظهر بمظهر الحليف المنقذ وليس العدو المحتل.

إن الأنشودة التي كان يغنيها مؤيدو الثورة العربية في فلسطين والتي تتضمن بيتاً يقول:

فيصل يا ابن الرسول خلِّص بلاد الإسلام[65]

تعطي نموذجاً لحقيقة الفهم الشعبي المؤيد للثورة من أن ما تقوم به هو خدمة للإسلام وأرض الإسلام، وأن البريطانيين هم "أداة" بيد الثورة وليس العكس.

وتشير الوثائق التي نقوم بدراستها إلى حالة الشد والإرباك التي عاشها أبناء فلسطين في تلك الفترة. فعلى الرغم من وجود نسبة كبيرة مؤيدة للثورة العربية وحلفائها إلاّ أنها كانت تأسف على الكارثة التي يرون أنها ألّمت بالإسلام بسبب هزائم الأتراك في الميدان "هذا الشعور لم يظهر بشكل أكثر فعالية، ولم يزد عن الأسف، لأنهم يرون أن الحكومة التركية كانت سيئة بشكل مؤسف، بحيث أن

---

[64] See: Summary of Historical Documents from the Outbreak of War between Great Britain and Turkey 1914 to the Outbreak of the Revolt of the Sharif of Mecca in Jun. 1916, prepared by "The Arab Bureau", Cairo, 29 Nov. 1916, p. 1, W.O. 158/624.

وانظر: عبد الوهاب الكيالي، **مرجع سابق**، ص 72.

[65] إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً** (بيروت: دار النهار، 1972)، ص24.

المصيبة التي حلت بالإسلام تصادفت معها".[66] وربما أمكننا تشبيه هذه الحالة بحالة الأم مع ابنها العاق فإنه مهما بلغ به السوء والإيذاء يبقى ابناً تميل بعاطفتها نحوه، وتتعلق بأمل عودته إلى حضنها. بينما تأمل خيراً من ابنها الآخر الذي اقترب قدومه ـ بعد طول غياب ـ لكنها تتوجس من مستقبل سلوكه معها، وحقيقة أصدقائه الغرباء.

وقد وجدت هذه الحالة من الشد بين الطرفين طريقها إلى منابر المساجد في خطب الجمعة. إذ إن خطباء المساجد في منطقة يافا كانوا يدعون في صلاة الجمعة "لسلطان المسلمين" دون تحديد اسم السلطان. وهذا نموذج على حالة التعادل و "اللاقرار" بحيث يفهم منه السلطان العثماني أو السلطان المرتقب "الشريف حسين". ومن الطريف الإشارة إلى أن هذه الوثائق تحدثت أيضاً عن حالة الارتباك نفسها في مساجد بغداد ـ بعد الاحتلال البريطاني ـ فبعضها كان لا يزال يدعو للخليفة العثماني، وعدد أقل للشريف حسين بوصفه خليفة، بينما كان الأغلب يدعو لخليفة المسلمين دون تحديد الاسم. وقد وجدت السلطات البريطانية في فلسطين أنه ما دام السلطان العثماني لا يذكر بالاسم في الدعاء فمن الأفضل ترك الشكل لتقدير الأئمة المعنيين "لأن تحديد شكل ما سيكون مثيراً للاستياء".[67]

وقد راعت السلطات البريطانية الأحوال الدينية في المناطق المحتلة وبعضاً من حساسيات المسلمين فجعلت حراسة المسجد الأقصى مثلاً تحت مسؤولية الهنود المسلمين المجندين في الجيش البريطاني.[68] وحرصت على تحسين العلاقة بمفتي القدس، ونجحت في ذلك إلى حد كبير. وقام القائد العام للقوات البريطانية ـ الجنرال اللنبي Allenby ـ بنفسه بزيارة المفتى بحضور اثنين من زعماء المسلمين، وأشار تقرير للحاكم العسكري للقدس "ستورز Storrs" أن هذه الزيارة أحدثت أثراً عميقاً جداً وممتازاً في المفتي، وأسهمت في التخفيف من حدة مخاوف زعماء المسلمين الثلاثة من الصهيونية. وأضاف حاكم القدس إن اللنبي وعد بإحضار مهندس معماري للمسجد الأقصى، وادّعى أن هذا أقنع المفتي ومن معه أن السلطات العسكرية البريطانية "هي

---

[66] Intelligence Summary, 12 Mar. 1918, p. 33, W.O. 157/725.

[67] Intelligence Summary, 26 Jun. 1918, p. 30, W.O. 157/728.

[68] Intelligence Summary, 6 Apr. 1918, p. 13, W.O. 157/726.

في الحقيقة تضع مصلحة الإسلام في القلب"!![69] وبغض النظر عن مدى مصداقية ودقة الحاكم العسكري للقدس، فإنه يظهر أن العامل الديني كان عنصراً مقدراً لديهم. وقد استطاعت السلطات العسكرية المحافظة على علاقتها الودية مع مفتي القدس الذي قام من جهته بمجاملتهم، فشارك في التهنئة بعيد ميلاد ملك بريطانيا،[70] وبافتتاح الجامعة العبرية في القدس،[71] وبتهنئة القوات العسكرية على إتمام احتلالها لباقي فلسطين وسوريا.[72] وقد منحته السلطات البريطانية وساماً (وسام القديسين ميخائيل وجورج C.M.G).[73] ولا شك أن مثل هذه السياسات وانعكاساتها الإيجابية على عدد من علماء المسلمين -بما فيهم المفتي- أسهمت في إضعاف حالة العداء الديني المكشوف ضد البريطانيين.

ثالثاً: المشروع الصهيوني

يعد المشروع الصهيوني لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين أحد أهم العوامل المحددة لموقف أبناء سنجقية بيت المقدس. وبقدر ما كانت هناك آمال كبيرة معلقة على إنشاء مملكة عربية برئاسة الشريف حسين، بقدر ما كانت هناك مخاوف من حقيقة النوايا البريطانية وإمكانية تسليم فلسطين لليهود.

وكما حرصت السلطات البريطانية على إخفاء نواياها تجاه فلسطين في تلك الفترة، فقد سعت الحركة الصهيونية إلى سلوك مماثل. وأرسل وايزمن C. Weizmann زعيم الحركة الصهيونية في فبراير 1918 إلى اللجنة اليهودية في يافا يخبرهم بقدوم البعثة الصهيونية، ويذكر أنها تسعى لتحقيق سبعة أهداف، أحدها المساعدة على إنشاء علاقة صداقة مع العرب والمجتمعات غير اليهودية. وحذر وايزمن في رسالته بأن أي احتكاك بين اليهود وغيرهم في فلسطين "سيكون خطيراً جداً على خططنا". وقال:

---

[69] Intelligence Summary, 19 Mar. 1918, p. 43, W.O. 157/725.

[70] Intelligence Summary, 13 Jun. 1918, p. 12, W.O. 157/728.

[71] See: Intelligence Summary, 25 Jul. 1918, p. 29, W.O. 157/729, and Norman Bentwich, *England in Palestine* (London: Kegan Paul Trench, Turbener & Co., 1932), p. 30.

[72] Intelligence Summary, 28 Jul. 1918, p. 5, W.O. 157/731.

[73] See: G.H.Q., Egypt to W.O., 12 Apr. 1920, Secret, F.O. 371/5117.

وانظر: عجاج نويهض، **مرجع سابق**، ص 332.

"إن عليكم أن تستخدموا أقصى ما تستطيعون من جهود لمنع أن يؤدي حماس اليهود لتبني سلوك قد يؤدي إلى إثارة الخوف والشك بين السكان المحليين".[74]

وعلى الرغم من ذلك، فقد أبدى الناس حالة تشكك وامتعاض تجاه البريطانيين، فضلاً عن حالة عداء مبكر مكشوف تجاه المشروع الصهيوني. وقد اعترف الحاكم العسكري للقدس في 29 يناير 1918 أن من أسباب تضاؤل شعبية بريطانيا في المدينة "ضيق المسلمين من سياسة الحكومة المقترحة تجاه اليهود".[75] وفي رام الله نقل تقرير للمخابرات في 2 إبريل 1918 أن الموضوع الأساسي للحوار هو المسألة اليهودية، وأن كل المسلمين والنصارى يعارضون بقوة مجيء اليهود بأعداد كبيرة إلى فلسطين. وأنهم مقتنعون أن اليهود قد بدأوا بشراء الأراضي عبر عملاء محليين. ويضيف أن أهل رام الله "قد جهزوا أنفسهم للذهاب إلى أي مدى لإعاقة الهجرة اليهودية".[76]

ولم تفلح جهود البعثة الصهيونية -التي وصلت إلى فلسطين في إبريل 1918 بقيادة وايزمن نفسه - في تهدئة مخاوف السكان. وعلى الرغم من لقاءاتها المتعددة - التي اتخذت طابع المجاملة - مع قيادات المجتمع المحلي إلاّ أن الحالة الشعبية استمرت على عدائها ونفورها. حيث تشير التقارير إلى اهتمام متزايد بمتابعة أنشطة البعثة الصهيونية، وتنقل أن الرأي العام استمر في حالة انزعاج من هذه البعثة، وأن الشعور العام في يافا تجاه الإدارة البريطانية لا يتحسن بسبب اعتقادهم أن هناك معاملة تفضيلية لليهود.[77] ويعترف تقرير من مخابرات يافا أن لقاء وايزمن مع ممثلي الجمعية الإسلامية المسيحية في مكتب الحاكم العسكري في 8 مايو لم ينجح في طمأنة المسلمين والمسيحيين بل "أعطت أثراً عكسياً".[78]

وقد أدرك السكان خطورة الإمكانات التي تملكها الحركة الصهيونية، ولاحظوا بقلق اشتراك أحد أفراد عائلة روتشيلد عضواً في البعثة، مما أعطى انطباعاً بأن الفكرة الصهيونية مدعومة بثروة أسطورية. وعلق ضابط مخابرات رام الله بأنه على الرغم من أن الناس

---

[74] Intelligence Summary, 16 Feb. 1918, p. 27, W.O. 157/724.

[75] Intelligence Summary, 29 Jan. 1918, p. 20, W.O. 157/723.

[76] Intelligence Summary, 2 Apr. 1918, p. 3, W.O. 157/726.

[77] Intelligence Summary, 24 Apr. 1918, p. 40 and 30 Apr. 1918, p. 44, W.O. 157/726, and Intelligence Summary, 9 May 1918, p.13, W.O. 157/727.

[78] Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 25, W.O. 157/727.

"سوف يقاومون الهجرة الصهيونية بعنف، فإنهم يخشون أن المال سيفوز في النهاية".[79]

وما يلفت النظر في هذه التقارير هو أنها تكشف لنا عن ردود فعل معارضة أو معادية لبريطانيا في فترة مبكرة بسبب المشروع الصهيوني، وحتى قبل قدوم البعثة الصهيونية.

رابعاً: الدعاية

شكلت الدعاية البريطانية والدعاية العثمانية أحد عناصر التأثير في السكان التي أشارت إليها تقارير المخابرات. وفي سنجقية بيت المقدس استفادت السلطات البريطانية من احتلالها للمنطقة في بث دعايتها المنظمة ضد العثمانيين. ففضلاً عن تأكيداتها المستمرة على التحالف مع الثورة العربية، وسعيها لتحقيق حرية الناس وسعادتهم، فقد لجأت إلى استقدام وفد من أبناء بلاد الشام المقيمين في مصر المؤيدين لبريطانيا مثل سليمان ناصيف وفارس نمر وغيرهم. وقد حاولوا تهدئة مخاوف السكان تجاه بريطانيا والمشروع الصهيوني. وذكر سليمان ناصيف في اجتماعه مع الزعماء العرب في المنطقة ليس هناك مدعاة للخوف، لأن البريطانيين سوف يعتنون بشئونهم.[80] وأشار التقرير إلى أن جهود هذا الوفد أسهمت شيئاً ما في التخفيف من مخاوف المسيحيين والمسلمين تجاه النشاطات الصهيونية،[81] ويبدو أن ذلك ما كان ليتحقق لولا المعلومات المضللة التي أدلى بها هؤلاء الذين استقبلهم البعض بشيء من الثقة والتصديق لأنهم عرب من بني جلدتهم. وعلى أي حال، فيظهر أن تأثير هؤلاء كان محدوداً ومؤقتاً.

وقد لجأت السلطات البريطانية إلى وسائل متنوعة لإيصال دعايتها للسكان المحليين. وقد راعت فيها الوصول إلى أكبر قدر من المتعلمين وغير المتعلمين. فكانت تصدر بوستر "ملصق" بعنوان "حقيقة"، وتعدُّه أفضل طريقة للوصول إلى غير المتعلمين. وقامت باستخدام الصحافة المصرية الموالية بوصفها وسيلة عادية للدعاية، وكانت هناك قناعة لدى السلطات أن الدعاية "تحصل على مصداقية أعلى إذا ظهرت

---

[79] Intelligence Summary, 18 Apr. 1918, p. 33, W.O. 157/726.

[80] Intelligence Summary, 23 May 1918, p. 35, W.O. 157/727.

[81] Intelligence Summary, 26 May 1918, p. 39, W.O. 157/727.

في الصحافة العادية التي تحصل دائماً على مصداقية عظيمة في الشرق". فمثلاً "المقطم" المصرية المقربة من دار المعتمد البريطاني في مصر كانت إحدى الوسائل، ولاحظت السلطات أن المتحدثين بالعربية من مسلمين ونصارى يقرأونها بانتباه شديد. أما "اللطائف" فباستخدامها للوسائل التوضيحية فإنها - على حد تعبير السلطات - "وسيلة جيدة لنشر دعايتنا العربية لعدد واسع من العامة". وذكر أن صحفاً أخرى مثل "الكوكب" المصرية، و"القبلة" (الصادرة في الحجاز) يرحب بهما المسلمون المتدينون، كما يرحب بهما في المناطق المهتمة اهتماماً لصيقاً بالحركة العربية.[82]

ووفرت السلطات البريطانية أماكن لقراءة الصحف -التي تخدم الدعاية البريطانية - في عدد من المدن، ففي القدس وفرت غرفتين للقراءة، كما زودت تسع مقاهي ومحلات حلاقة بالصحف والنشرات ووسائل الدعاية وتقارير رويتر، وعرضت السينما الوحيدة المتوفرة أفلاماً دعائية. كما فتحت غرفة قراءة في كل من يافا والرملة وبيت لحم وبيت جالا والخليل. أما في بئر السبع فكانت الدعاية توضع في محل يتردد عليه بانتظام الشيوخ والعرب من أبناء القبائل المجاورة. وحسب رأي السلطات البريطانية فإن إنشاء غرف قراءة في مناطق عسقلان والمجدل وغزة وخان يونس سيكون لا قيمة له، فمعظم السكان حسب تقديرها غير متعلمين واهتمامهم محلي غالباً، ومن الصعب بالتالي على أحد استخدام غرف القراءة. ولتجاوز هذه "المشكلة" فقد لجأت السلطات البريطانية إلى "مخاتير" هذه المناطق ليقوموا بالدعاية، حيث يأتي كل مختار أسبوعياً فيأخذ بعض الصحف التوضيحية ومواد أخرى مناسبة، ويتم تعليق نشرة الأخبار اليومية في الأسواق. واستخدمت السلطات الأسلوب نفسه مع قرى المناطق الأخرى - حيث تغلب الأمية - مثل قرى يافا ورام الله. وأعطت السلطات اهتماماً خاصاً بمنطقة الخليل التي ذكرت أنها "مركز المسلمين المتعصبين جداً، وهي مركز مهم جداً لدعايتنا" فكلفت شخصاً بالقراءة لغير المتعلمين، ووضعت وسائل دعائية في كل المراكز الحكومية المحلية وفي عددٍ من المقاهي ومحلات الحلاقة، وتم تزويد أشخاص مثل مفتي المدينة وغيره بالنشرات.[83]

---

[82]Report on Propaganda in Occupied Palestine during the Month of April 1918, p. 1, W.O. 157/726.

[83]Ibid, pp. 2- 3, W.O. 157/726.

وهكذا فإن السلطات البريطانية حاولت أن تملأ الأجواء بدعايتها من خلال أساليب عمل منهجية منظمة لتصل كل واحد من سنجقية بيت المقدس، وبالتالي فلا عجب أن نعدّ الدعاية أهم وسائل التأثير في توجهات الناس في تلك الفترة.

أما السلطات العثمانية فقد حاولت من جهتها التأثير في الناس من خلال أنصارها، وذكر تقرير للمخابرات البريطانية -نقلاً عن أحد المثقفين الأرمن الهاربين من الجندية - أنه يمكن تقسيم الدعاية العثمانية إلى قسمين، الأول مبني على الفكرة الإسلامية والثاني اقتصادي، أما الأول فإنهم يجهدون أنفسهم لإثبات أن دول الحلفاء قد أخضعت أكثر من 200 مليون مسلم في آسيا وإفريقيا، وأنهم لم يكتفوا بذلك، وإنما يريدون تدمير الإمبراطورية الإسلامية الوحيدة (الدولة العثمانية). وأن السلطان هو خليفة المسلمين وهو ممثل الرسول ﷺ، وأن تركيا لا تقاتل من أجل وجودها فقط، ولكن من أجل الخلافة والإسلام. أما الألمان فهم فقط حلفاء موثوقون للمسلمين، وعلى كل المسلمين الصادقين أن يقفوا ويتوحدوا من أجل تركيا وحلفائها. وفي الجانب الاقتصادي يقولون إن العالم خاضع للتأثير الاقتصادي لدول الحلفاء وأن بريطانيا تقاتل من أجل مصالحها، وترغب في جعل المحيط الهندي بحيرة بريطانية، وإذا حقق الحلفاء ما يريدون فسوف ينتهي الإسلام. ويذكر أن هذه هي الدعاية المعتادة وسط الدوائر الاجتماعية العالية والمثقفة. أما الدعاية وسط الفئات الأدنى من بسطاء وغير متعلمين فإن الطرح يكون أساسه أن كل الأوروبيين بما فيهم الألمان كفار، ومع ذلك فإن القادة الأتراك يقودونهم بصبر للاستفادة من أنشطة المسيحيين الألمان، ويقولون إنهم الآن يستفيدون من هؤلاء الكفار، ولكن هذا أمر مؤقت وبعد الحرب فإنهم سوف يكنسون جميع الكفار خارج تركيا.[84]

وهكذا نجد أن العثمانيين قد ركّزوا في طرحهم في المناطق العربية على الجانب الديني وفكرة الخلافة وحماية الإسلام، إذ إن الإسلام هو الذي يجمعهم مع العرب، وإليه كانت تستند شرعية حكمهم، هذا على الرغم من أن قادة "الاتحاد والترقي" المتحكمين في الدولة كانوا بعيدين عن الالتزام بالسلوك الديني، وتبنوا سياسات قومية علمانية أدت إلى ردود فعل معاكسة من قبل العرب وغيرهم.

---

[84] Intelligence Summary, 8 Apr. 1918, p. 4 -5, W.O. 157/726.

وتشير التقارير البريطانية إلى أن السلطات العثمانية لديها قسم خاص "بالخدمات السياسية السرية" في سوريا، وأن جمال باشا ينفق على هذا الغرض 24 ألف جنيه ذهباً شهرياً، وأن رئيس هذه الخدمة هو عبد الحميد بيك سعيد من مصر. وأن عناصر هذه الخدمة هم بشكل رئيس من المصريين، فضلاً عن قلة من الطرابلسيين (ليبيا) وكويتيين وتونسيين، ويهود، وسوريين عرب. أما سبب تفضيل المصريين ومواطني شمال إفريقيا فهي أنهم غرباء في سوريا، وليس لهم أعداء وغير متحزبين.[85]

ومن الوسائل التي لجأ إليها الأتراك هي نشر تقارير عن أن البريطانيين في المناطق المحتلة (سنجقية بيت المقدس) يسرقون القمح ويغتصبون النساء ويقتلون السجناء، ويخبر السكان أنه من الأفضل "إعطاء قمحهم للأتراك الذين هم مسلمون، بدلاً من حفظها للكفار البريطانيين لينهبوها"، وقد وجدت هذه التقارير قبولاً لدى السكان.[86]

وفي أواخر فبراير 1918 انتشرت إشاعة في يافا أن أنور باشا أمر بإرسال علم الرسول ﷺ من اسطمبول في جولة في سوريا من أجل التأثير في السكان العرب "من أجل القيام بواجبهم تجاه دينهم، ولإحياء فكرة الحرب المقدسة".[87]

ويبدو أن السلطات البريطانية راقبت بحذر احتمالات انتشار الدعاية المضادة لبريطانيا عن طريق الحركة الوطنية في مصر. ورصد أحد تقاريرها في 28 مارس 1918 انتشار شائعات - في جنوب فلسطين - أن سبب منع الناس من الذهاب إلى مصر هو خوف السلطات البريطانية من أن يقوم الوطنيون المصريون بتعبئة الناس ضد بريطانيا.[88] وذكر ضابط مخابرات القدس في تقرير رفعه في 24 أغسطس 1918 أن رسائل قد جاءت من المسلمين والنصارى العرب في مصر تدعو جميع عرب فلسطين إلى توحيد القوى ضد الخطر الصهيوني المشترك، وإلى تشكيل جمعيات تكافلية، وألاّ يبيعوا أرضهم لليهود.[89] كما وجدت السلطات البريطانية في المصريين - العاملين ضمن قوات الحملة البريطانية في فلسطين - عنصراً محتملاً للتعبئة المضادة. وقد كانت

---

[85] Intelligence Summary, 7 Mar. 1918, p. 19 W.O. 157/725.

[86] Intelligence Summary, 19 Feb. 1918, p. 30, W.O. 157/724.

[87] Intelligence Summary, 27 Feb. 1918, p. 50, W.O. 157/724.

[88] Intelligence Summary, 28 Mar. 1918, p. 54, W.O. 157/725.

[89] Intelligence Summary, 24 Aug. 1918, p. 15, W.O. 157/730.

هناك أعداد كبيرة من المصريين استفاد منها الجيش البريطاني في أشغال السكك الحديدية والطرق والبناء والنقل والأمن الداخلي، وقد وصل مجموعها إلى "128950" شخصاً.[90] ونقل تقرير لضابط مخابرات القدس في 11 يوليو 1918 أن أحد أفراد الشرطة المصريين اقترب من امرأة قادمة من بيت لحم لتبيع الفواكه والخضار، وسألها إن كانت مسلمة فقالت: نعم. وعند ذلك أخبرها أن كل المصريين يكرهون الإنجليز، وأن كل المصريين أُجبروا على القتال، وأنهم على كل حال ليسوا موثوقين من البريطانيين، وأن رجال الشرطة المصريين لم يُسلّموا مسدسات مثل الشرطة البريطانيين. وقال الشرطي المصري إن القوة بيد البريطانيين الآن، ولكن المصريين والأتراك سوف يحققون قوتهم الذاتية يوماً ما. وقد قامت السلطات البريطانية بإرسال أحد عملائها الذي سمع الكلام نفسه من الشرطي.[91] ونقل أحد العملاء عن شرطي مصري آخر قوله إنه يأمل أن ينتصر الأتراك، وأنه لا توجد خدمة تطوعية من المصريين وأن كل المصريين يقومون بالعمل مثل المساجين، وأن الإنجليز أخذوا الرجال من القرى المصرية، وأحضروهم إلى مراكز التجنيد وأيديهم مقيدة.[92]

ويبدو لنا أن هاتين العيّنتين من رجال الشرطة المصريين العاملين مع القوات البريطانية تمثلان شريحة من المشاعر الوطنية المصرية التي أخذت تتأجج في تلك الفترة وتكللت بثورة 1919. ولكن هذين النموذجين لا يعطيان مؤشرات واضحة عن أي عمل منظم لتأجيج مشاعر الفلسطينيين، فقد كان تعبيرهما عن مشاعرهما بطريقة بسيطة مكشوفة، وكان يكفيهما للحديث مجرّد معرفة أن الشخص الآخر مسلم.

وهكذا فإن الطرفين العثماني والبريطاني وأنصارهما حاولوا شد الناس إليهم، ولذلك لاحظنا أن حالة تنازع الناس بين الطرفين قد استمرت حتى نهاية الحرب العالمية، أي الفترة التي نحن بصددها.

خامساً: أجواء الحرب:

يمكن اعتبار أجواء الحرب العالمية السائدة سنة 1918 كأحد العوامل المؤثرة في

---

[90] The Advance of Egyptian Expeditionary Force, p. 25 and p. 94.

[91] Intelligence Summary, 11 Jul. 1918, p. 12, W.O. 157/729.

[92] Ibid.

موقف الناس في تلك الفترة. فقد كان الناس يعانون من حالة عدم استقرار وخوف وفقدان الأمان. فمن جهة كانوا يتعاملون مع الأوضاع باعتبارها أوضاعاً مؤقتة يمكن أن تتغير في أي لحظة سياسياً أو عسكرياً، لصالح أي من الطرفين العثماني أو البريطاني. ومن جهة أخرى فإن وضعهم تحت الحكم العسكري البريطاني، الذي لم تكن تحكمه ضوابط أو قوانين محددة أثناء الحرب، قد جعلهم أكثر حذراً في التعبير عن آرائهم ومشاعرهم خشية الانتقام أو العقاب أو الاتهام "بالعمالة".. . ولذلك فلم يكن بعيداً عن الحقيقة أن يعترف الحاكم العسكري للقدس أن "كلمته كانت هي القانون"!![93] وبالنسبة لعامة الناس فإن التصريح بحقيقة مشاعرهم يعتمد كثيراً على حالة الأمان التي يشعرون بها، ولذلك ربما رغب الكثيرون في أن يتركوا وشأنهم حتى تنجلي الأمور.

ومن الأمثلة على أن السلطات البريطانية لم تكن تتساهل مع الآراء المخالفة أن أحد تقارير مخابراتها من يافا في 29 يناير 1918 ذكر أن عدداً من الناس الذين سمعوا يتحدثون في السياسة أو يعلقون بشكل غير محبذ عن الوضع العسكري قد "تم إنذارهم" أن مثل هذه التصرفات لا ينصح بها في الوقت الحالي. وعلق التقرير بأن هذا الإنذار قد "أعطى التأثير المطلوب".[94]

ومن مظاهر حالة اللااستقرار التي فرضتها الحرب والتي وجدت انعكاساتها على موقف الناس وسلوكهم تلك الإشاعات التي كانت تؤكد أن فلسطين ستعود للأتراك إما بقوة السلاح أو كأحد شروط السلام، وهي إشاعات كانت تؤكدها أوساط المتعلمين وأنصاف المتعلمين في يافا، وهؤلاء أظهروا بالتالي مشاعر قوية مضادة للبريطانيين.[95] كما انتشر في غزة أن الاحتلال البريطاني هو إجراء عسكري مؤقت وأن فلسطين ستعود لسادتها السابقين بعد إعلان السلام.[96] وقد دفعت مثل هذه المشاعر "مخاتير" قرية السوافير الشرقية قرب المجدل إلى إخبار القرويين في إبريل 1918 ألاّ يلقوا بالاً للأوامر البريطانية بتسليم أسلحتهم، لأن الأتراك سيعودون قريباً.[97]

---

[93] Ronald Storrs, **Orientations** (London: Ivor Nicholson & Watson, 1937), p. 372.

[94] Intelligence Summary, 29 Jan. 1918, p. 19, W.O. 157/723.

[95] Intelligence Summary, 3 Apr. 1918, p. 6, W.O. 157/726.

[96] Intelligence Summary, 25 Jan. 1918, p. 16, W.O. 157/723.

[97] Intelligence Summary, 5 Apr. 1918, p. 11, W.O. 157/726.

كما اعترف تقرير للمخابرات من بيت لحم أن السكان يشعرون أنهم لم يتخلصوا تماماً من الأتراك، خصوصاً أنهم لا يزالون يسمعون أصوات البنادق والقنابل بقربهم. وأن هذه الحالة "العصبية" أشد وضوحاً وسط البدو واللاجئين الذين عندما يعودون لقراهم يظهرون قدراً كبيراً من الضجر، وممانعة في إعطاء المعلومات.[98]

وكانت تحركات القوات العسكرية وتنقلاتها وتعاملها مع محاصيل الناس وممتلكاتهم من العوامل المثيرة للانزعاج، فقد تعددت الشكاوى من تدمير وسرقة القوات العسكرية لممتلكات الناس ومحاصيلهم دونما داعٍ، واتهم جنود القوات البريطانية بدخول القرى، وأخذ أبواب وسقوف المنازل لاستخدامها كخشب ووقود.[99] كما أن أسلوب إخلاء القرى في مناطق المواجهة الحربية قد سبب قدراً كبيراً من عدم الرضا،[100] ففي مناطق يافا مثلاً انتشر الحديث ضد بريطانيا بين القرويين الذين أخليت قراهم، خصوصاً وأنهم شعروا بمحاباة البريطانيين ليهود مستعمرة ملبس الذين سمح لهم بالبقاء ورعاية محاصيلهم، بينما لم يسمح للقرويين العرب بذلك.[101]

ومن جهة أخرى فإن السلوك الأخلاقي للجنود في أوقات الحرب يكون مدعاة للقلق خصوصاً في بيئة مسلمة محافظة كفلسطين. وقد أشارت التقارير إلى تلقي شكاوى عديدة من السلوك السيء للجنود خصوصاً تجاه النساء.[102] ونقلت التقارير أن أحد جنود الكتيبة الفرنسية حاول طرق كل الأبواب في أحد شوارع يافا باحثاً عن وسيلة لقضاء شهوته، وأنه عندما شق له أحد السكان باب داره حاول الجندي الاقتحام فمنعه صاحب البيت فأطلق الجندي النار عليه وقتله. واسم صاحب البيت هو أحمد خالد.[103] وقد تحدث أميل الغوري في مذكراته عن حوادث مشابهة تكرر فيها السلوك المشين للجنود البريطانيين، وكيف قاومهم السكان، وكيف أن ذلك

---

98 Intelligence Summary, 5 Feb. 1918, p. 4, W.O. 157/724.

99 Intelligence Summary, 25 Jan. 1918, p. 16, W.O. 157/723, and Intelligence Summary, 3 Apr. 1918, p. 6 and 24 Apr. 1918, p. 40, W.O. 157/726.

100 Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 25, W.O. 157/727.

101 Intelligence Summary, 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.

102 Intelligence Summary, 3 Apr. 1918, p. 6, W.O. 157/726.

103 Intelligence Summary, 5 Feb. 1918, p. 5, W.O. 157/724.

كان سبباً في ضيق الناس وبغضهم للبريطانيين.[104]

كما انعكست ظروف الحرب على طبيعة المعلومات التي يتلقاها البريطانيون، وكان من أمثلة ذلك ورود تقارير عن قصص غير صادقة أو غير كاملة يدلي بها الهاربون من الجندية عند التحقيق معهم. وقد عللت المخابرات ذلك بأنه يعود غالباً إلى الخوف من أن يتم تجنيدهم في الجيش البريطاني، أو أنهم سوف يؤخذون بعيداً عن عائلاتهم إلى مصر.[105] وعلى هذا فمن غير المستبعد أن البريطانيين كانوا يسمعون من هؤلاء وغيرهم ما يظنون أنه يفرح البريطانيين ويسرُّهم، وليس بالضرورة ما يعرفهم الحقيقة. وهذا ما يجعلنا أكثر حذراً عند تفحص التقارير البريطانية في تلك الأثناء.

ومما تجدر ملاحظته أن أي حالة من الشعور بالاستقرار والأمان كانت تنعكس إيجاباً على مشاعر الناس الذين أرهقتهم الحرب وتاقوا إلى نهايتها. وفي هذه الحالة فإن مشاعر الرضا أو الانزعاج لا تعني بالضرورة تأييداً للقادمين ولا لعنة على الذاهبين، وإنما هو تعبير يوافق حاجات الناس الأساسية وخصوصاً بسطاء الناس وعامتهم. ومن المظاهر التي وجدت قبولاً لدى الناس اقتراح تشكيل قوة شرطة محلية،[106] وازدياد الشعور بالأمان،[107] واتجاه السلطات البريطانية للقيام بعدد من الإجراءات الإدارية، ومن بينها ترتيب الصلة بـ "مخاتير" القرى ومتابعتهم في أداء مسئولياتهم، مما جعلهم أكثر جدية في متابعة أعمالهم.[108] وكان لتعيين قاضي وإعادة فتح محكمة الصلح في يافا، واعتماد البريطانيين لنظام القضاء العثماني القديم أثر محبب جداً.[109] كما لم تفت الناس في منطقة المجدل أن يعبروا عن ارتياحهم لأن البريطانيين لا يأخذون الرشاوى، وهي الآفة التي كانت منتشرة قبل ذلك في أواخر العهد العثماني.[110]

وهكذا، فإن أجواء الحرب تفرض أحياناً مشاعر مؤقتة في أوضاع مؤقتة، كما تفرض أحوالاً تتضمن مجاملات ومداراة للسلطات القائمة، خصوصاً ممن هم

---

104 أميل الغوري، **مرجع سابق**، ص 32 - 33.

105 Intelligence Summary, 25 Jan. 1918, p. 16, W.O. 157/723.

106 Intelligence Summary, 5 Mar. 1918, p. 12, W.O. 157/725.

107 Intelligence Summary, 19 Mar. 1918, p. 52, W.O. 157/725.

108 Intelligence Summary, 12 Feb. 1918, p. 17, W.O. 157/724.

109 Intelligence Summary, 11 Feb. 1918, p. 14, W.O. 157/724.

110 Intelligence Summary, 28 Mar. 1918, p. 53, W.O. 157/725.

مشغولون بهمومهم اليومية.

سادساً: الأوضاع الاقتصادية:

نلحظ في مواقع عديدة من التقارير البريطانية ربطاً بين رضا الناس أو انزعاجهم وبين تبدل الأحوال الاقتصادية. على أن الربط الذي تشير إليه التقارير سلباً أو إيجاباً لا ينبغي أن يفهم منه أن السكان قد بنوا تأييدهم للبريطانيين أو العثمانيين على أساس تحسن أو تراجع أحوالهم الاقتصادية. فمهما تحسنت الأوضاع تحت حكم استعماري يحرم الناس من حرياتهم السياسية وأمانيهم القومية والدينية، فإنه سيظل استعماراً بغيضاً. وهذا ما أثبته العرب في فلسطين فيما بعد، ولا عبرة هنا ببعض الحالات الشاذة المنتفعة من الأوضاع. والمعيار الاقتصادي يأتي هنا تابعاً لقناعات سابقة تجاه العثمانيين أو البريطانيين، فإذا قام البريطانيون - مثلاً - بتحسين بعض الأوضاع فإن ذلك سيرفع من أسهمهم وسط أولئك الذين يرون فيهم حلفاء، والذين يأملون أن تصدق بريطانيا في تحالفها مع الثورة العربية. بينما سيستغل مؤيدو الحكم العثماني أي تراجع في الأوضاع ليدللوا على صدق رؤاهم وتحليلاتهم، أما بسطاء الناس والمترددون فإنهم سيعيشون حالة "حراك" مواقف بين طرف وآخر باختلاف الأوضاع.

وقد أشارت التقارير البريطانية إلى ازدياد شعبية البريطانيين شيئاً ما في المجدل بسبب مساعدة السلطات للسكان في الحصول على البذور والقمح والماشية.[111] كما أبدى السكان العرب في يافا ارتياحاً كبيراً لاتخاذ السلطات العسكرية إجراءات بعدم السماح ببيع أو نقل الأراضي في تلك الفترة.[112] وفي بيت لحم ربط أحد التقارير بين رضا الناس وازدهار التجارة هناك، وتحدث عن توفر الكثير من فرص العمل، حتى إن التقرير أشار إلى أنه يجري تشغيل كثير من الأطفال في أعمال الطرق أو الزراعة، وأن حضورهم ضعيف في المدارس.[113]

ومن جهة أخرى فإن بعض الأحوال والإجراءات الاقتصادية كانت سبباً في انزعاج السكان وضيقهم من البريطانيين. فقد عانى موظفو الحكومة العثمانية

---

[111] Intelligence Summary, 24 Jan. 1918, p. 15, W.O. 157/723.

[112] Intelligence Summary, 24 Apr. 1918, p. 40, W.O. 157/726.

[113] Intelligence Summary, 5 Mar. 1918, p. 13, W.O. 157/725.

السابقين من الأوضاع الجديدة وعبروا عن حالة من عدم الرضا في يافا "حيث إنهم مفلسون تقريباً، والفرصة أمامهم لأي عمل ضعيفة".[114] واعترف تقرير الحاكم العسكري للقدس بتضاؤل شعبية البريطانيين في المدينة في أواخر يناير 1918 وعرض لذلك بعض الأسباب أكثرها مرتبط بالأوضاع الاقتصادية، مثل عدم اعتراف السلطات البريطانية بأوراق العملة التركية، والتأخر في قبول الفضة التركية وتثبيت قيمتها، ونقص قطع النقود الصغيرة "الفراطة"، وصعوبة توفير الطعام والتموين.[115] وفي تقرير آخر من القدس نقل أحد الأرمن الموثوق فيهم لدى البريطانيين أن المسلمين في المناطق المحتلة (سنجقية بيت المقدس) مصابون بشكل عام بخيبة أمل تجاه الإدارة البريطانية بسبب الغلاء الفاحش في تكاليف الحياة، وأشار إلى عدم رضاهم لأن الإدارة البريطانية تطالبهم بمتأخرات الضرائب.[116]

وقد كانت المعاملة الاقتصادية التفضيلية لليهود أحد العناصر المؤثرة في عدم تأييد الناس للبريطانيين. فقد نقل أحد التقارير في مايو 1918 أن الشعور العام وسط المسلمين والمسيحيين في يافا هو عدم الرضا عن الحكم البريطاني بسبب ما يعتقدون أنه المعاملة التفضيلية لليهود، وبسبب الدعم الذي قُدِّم لهم، والتسهيلات العظيمة التي حصلوا عليها. ومن ذلك حصول اليهود على إذن بتصدير البضائع، وتفضيلهم في الصفقات لدى الإدارة العسكرية البريطانية، وفي حصص العقود مع الجيش، وفي العمل في إدارات الحكم. كما أنهم مفضلون في توزيع الدقيق، واستئجار الخيول والبغال لأغراض الزراعة.[117]

وليس في الوثائق - موضع الدراسة - إشارات كثيرة عن انعكاسات السياسات الاقتصادية العثمانية على الناس في المنطقة، غير أن هناك تقريرين يمكن استشفاف جزء من الصورة من خلالهما. التقرير الأول من المجدل في 11 يناير 1918 أن سكان فلسطين بشكل عام كانوا يعاملون بشكل جيد من قبل الأتراك، وأن الشكوى الرئيسة ضد الأتراك كانت في طلبهم للإمدادات من كل الأنواع بحيث تدفع قيمتها بأموال ورقية.[118] أما التقرير الثاني فيعطي صورة أكثر سلبية وينقل عن سجين حرب أرمني

---

[114] Intelligence Summary, 29 Jan. 1918, p. 19, W.O. 157/723.

[115] Intelligence Summary, 29 Jan. 1918, p. 20, W.O. 157/723.

[116] Intelligence Summary, 31 Mar. 1918, p. 56, W.O. 157/725.

[117] Intelligence Summary, 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.

[118] Intelligence Summary, 11 Jan. 1918, p. 7, W.O. 157/723.

كان يعمل طبيباً في الجيش العثماني أن هناك شعوراً من العداء المتبادل بين العرب والأتراك وقال: إنه رأى في إحدى المناسبات بعض الجنود الأتراك يعملون أبواب البيوت من أريحا فسألهم إن كانوا استولوا على هذه الأشياء من الإنجليز، فقالوا: لا، ولكن من الناس الذين هم أشد عداوةً لنا من الإنجليز، أي العرب.[119] وإذا كان لنا أن نقبل رواية الطبيب الأرمني، فلا ينبغي اعتبار الحادثة نموذجاً للسلوك المعتاد للعثمانيين، ولا للموقف المعتاد للعرب خلال فترة الحرب، وإنما ينبغي مراعاة التطور التاريخي للأحداث. فمع الاتجاه نحو نهاية الحرب العالمية الأولى، وتقدم الثورة العربية والبريطانيين، كانت تتوسع قطاعات الناس التي تميل بشكل أكبر لمعاداة الأتراك أملاً في قدوم بديل عربي أفضل. وإنه لم تمض سوى أيام قليلة على احتلال البريطانيين لأريحا، ولم يتهيأ للناس أن يجربوهم ويعرفوهم عن قرب ويقارنوهم بالعثمانيين.

خاتمة

تزودنا تقارير المخابرات العسكرية البريطانية بتفصيلات لا نكاد نجدها في أية مصادر أخرى، وتعين على فهم حقيقة أحوال الناس ومشاعرهم في تلك الفترة. وعلى الرغم من أن هذه التقارير حاولت إظهار تأييد قطاعات كبيرة من الناس للاحتلال البريطاني، إلا أن قرائن كثيرة تثبت أن ذلك التأييد كان مرتبطاً بالتحالف مع الثورة العربية الكبرى، وبالوعود المقطوعة للعرب بإنشاء دولة عربية تحت زعامة الشريف حسين. وتعكس هذه التقارير قدراً لا يستهان به من التشكك في نوايا البريطانيين، والعداء المبكر للصهيونية، وتبرز وجود قطاعات أخرى من الناس تؤيد العثمانيين، وتأسف على ضياع حكمهم، ومستعدة للترحيب بهم إذا عادوا.

ونستطيع أن نرى من دراستنا لهذه التقارير مدى تنازع مشاعر الناس وتداخلها، وحالة الشد المربك بين الطرفين العثماني والبريطاني المتحالف مع الثورة العربية. كما نلاحظ دخول عوامل دينية وقومية واقتصادية، وعوامل مرتبطة بأجواء الحرب والدعاية في التأثير على مشاعر الناس وسلوكهم تجاه العثمانيين والبريطانيين.

وعلى أي حال، فإن الدراسة النقدية لهذه التقارير تفيد في استكمال الصورة التي رسمتها المصادر الأخرى حول مواقف الناس ومشاعرهم.

---

[119] Intelligence Summary, 11 Mar. 1918, pp. 28-29, W.O. 157/725.